تلقي الخطاب القرآني وأثر الحداثة في توجيه الدلالة: مقاربة تداولية

Receiving the quranic discours and the effect of modernity in orienting the meaning: pragmatic approach

الباحث: عيس بكوش

إشراف: أ.د/ محمد زيوش

كلية الآداب والفنون- جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف(الجزائر)

aissamajeur@live.com

تاريخ الإرسال: 2018/07/15 تاريخ القبول: 2018/08/12 تاريخ النشر: 2018/09/01

ملخص:

نسعى في هذا المقال الى تناول موضوع التلقي للخطاب القرآني عبر مراحله التاريخية منذ عهد التنزيل الى عصرنا هذا، وسنحاول من خلاله الإجابة عن إشكالية مهمة وهي هل الخطاب القرآني يحافظ على دلالات ثابتة أم هو صالح لكل مكان وزمان؟ هل الخطاب القرآني هو نفسه النص القرآني المجموع في مدونة النص المغلق كما اصطلح عليه محمد أركون.

كما سنحاول الإجابة على أسئلة كثيرة تطرح نفسها حول شكل النص ومجازية اللغة القرآنية في التواصل والإعجاز البياني. كما نحاول أن نعالج في هذا المقال تأويل بعض النصوص الحساسة التي اشتهت بين فرق اسلامية مختلفة التوجه وكيف تلقت مثل هذا النوع من النصوص. وكيف ساعدت الآليات اللسانية الحديثة والمناهج الوصفية الى الوصول الى دلالات جديدة لم يحققها الدرس المعياري القديم.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني ; النص القرآني ; التلقي ; التأويل ; سياق التنزيل.

The summary of the article:

We seek through out this article to enhance the receiving of the quaranic discours through its historical phase from its revelation up till now, by answering the most important problematic ,which is: does the noble qur'aan preserve its significance "static meaning" or is it valid for all time and space? And is the quaranic discours considered as a quaranic text, a one unit text,seen from the prospective of Akroun Mohamed? Many questions will be dealt From the form of the text to the quaranic metaphoric language between communicative approch and rhetorical inimitability. We're also going to deal in this article with the interpretation of some sensitive quranic texts, identical in different islamic groups but with different orientations and how this kind of texts were received, in addition to how the modern linguistic mechanisms and the descriptive methods have helped to set new meanings that have never been fulfilled the old normative methods

***Key-words** : quranic discours ; quranic text ; receiving ; interpretation ; the context of the revelation.*

البحث:

عرفت دراسة النص القرآني منذ القديم حتى عصرنا هذا مجموعة من التحولات الفكرية أدت الى ظهور قضايا معقدة ومتداخلة حسب سياقات المجتمعات المتعددة .ولذلك فالحاجة قائمة لاكتشاف استراتيجيات النص ومعرفة كيفية تطويع الأفكار وجعلها تخضع للخطاب الموجه لفئة المجتمع .باعتبار أن النص القرآني له مكانة معرفية عالية لدى المسلم نظرا لقداسته، واتفاق الفئة الموجه اليها هذا النص على مكامن قوته التواصلية وعلو قيمته البيانية، و من المؤكد أن القرآن الكريم مجموعة من العلاقات اللسانية أو هو بنية لغوية غير مفارقة للثقافة والواقع .تؤدي وظائف كثيرة تصنف وفق اهتمام

و قصدية الدراسة، ولكن في المنظور التداولي تتحدد في وظيفتين مركزتين هي الوظيفة التعاملية والوظيفة التفاعلية؛ "فالوظيفة التعاملية هي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات تبرز من خلاله قيمة الاستعمال اللغوي "[1] حيث بهذه الوظيفة يتم تطوير الأفكار وتحقيق التواصل بجميع انواعه كالتوجيه والتعليم أما الوظيفة التفاعلية ،هي التي يقيم بها الناس علاقاتهم الاجتماعية ويحققون لأنفسهم غاياتها، فقد يقتصر دور اللغة في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها وقد يتجاوز الى التأثير وغيره "[2] فمن هذه الزاوية المزدوجة افترقت الدراسات القرآنية وتشكل للنص القرآني ازدواجية الرؤية، حيث اتجه فريق من المفسرين والدارسين الى الاهتمام بما يحققه النص من قيمة فنية وجمالية تتكفل بها الدراسات الأدبية وفئة أخرى من المفسرين والدارسين اتجهت الى اثر النص في المتلقي والبحث عن القيمة التوجيهية التي وجد لأجلها وتكفل بها التفسير الاجتماعي الذي ظهر حديثا والذي قد تبنته مدرسة محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومن نهج نهجهم.

إن النص القرآني لا يخرج عن لغة العرب ولا عن لسانهم المعهود وطريقتهم في الكلام إلا أنه تميز عن أي مثال سابق أو معهود فهو إن خاطب القوم بلغة الاعجاز اللغوي "فانه نص يخلق أدبيته الخاصة به التي تجعله نصا على غير مثال ،يبدع النصوص وهي لا تبدعه ومن ثم يخلق ثقافته ونظامه المعرفي الخاص الذي يجعل باقي الثقافات المناهضة تبعا وهو له ضابط ومولد"[3] بفضل هذه الامتيازات التي وجد بها النص القرآني في تصدره للساحة الإبداعية العربية مكن لنفسه القيادة ، اقرارا من نخبة البيان وبحثا من علماء العربية طيلة ردح من الزمن مما تبين أن لغة النص القرآني وإن كانت من لغة القوم إلا أنها لم تعرف من قبل بهذا الشكل والصياغة فهي لغة" ذات نظام خاص ينبغي على المهتمين بالدراسات القرآنية العكوف على دراستها من أجل اكتشاف ملامح تلك الخصوصية ،و ذلك بالطبع دون اهمال لعلاقتها بالأصل الذي تولدت عنه "[4].

عرفت الدراسات اللسانية الحديثة التميز بين اللسان والكلام باعتبار أنّ الكلام فردي و اللسان هو المدونة التي تجمع الفرديات ،فقد يختلف الكلام من شخص الى آخر و لا يخرج عن مدونة اللّسان ،لكن الشيء المعجز في القرآن بوصفه كلام متفرد أسهم في تهذيب اللسان و المدونة اللغوية للأمة فالثابت أنّ هناك مجموعة هائلة من المصطلحات و الالفاظ الشرعية و الحكمية لم تكن مستخدمة -إن لم نقل لم تكن موجودة على الاطلاق- أضيفت بفضل النص القرآني للّسان العربي حيث أسهمت في إثراء لغة النص وتحقيق التبليغ الدقيق في عملية التواصل .

1-**النص القرآني بين الملفوظ والمدون**: فرقت الدراسات اللّسانية الحديثة المعتمدة على مناهج العلم الموضوعية بين الملفوظ والمكتوب واعتبرت الكتابة هي صورة الملفوظ، وهي الطريقة الثانية لتخليد الملفوظ بعد الحفظ في الصدور والنقل عن طريق الرواية والمشافهة .

والنص القرآني لم يكن متجسدا في كتاب مدوّن في بداية حدوثه بل كان خطابا تبليغيا من قبل النبي (صلى الله عليه وسلم)، يتلفظ به أمام المتلقي، إذ يعتمد فيه على الجوارح وما اقتضاه الحال من مساعدات فيزيولوجية إضافة الى اللغة المنطوقة المحافظة على جميع إمكاناتها الصوتية والإيقاعية بطريقة متكاملة لا يشوبها نقص ولا عور في إيصال الرسالة كما أرادها المولى تبارك وتعالى. فلذلك حثت الآيات الكثيرة على تلاوته وترتيله خلافا للكلام المعتاد. حيث يقول تعالى "**(أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)**"المزمل(4). فقد ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عائشة(رضي الله عنها): "**كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها**"[5].وفي مقال آخر وصفت الترتيل فقالت "**لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها ،لا كسردكم هذا**"[6].

هذا دلالة على أن الخطاب القرآني يختلف في نصه عن النصوص الشعرية والخطابية وذلك لاحتواء النص القرآني على آليات قد تتجاوز طاقة الكتابة التي تتكفل بحمل هذه النصوص الأخرى. ربما يكون هذا الكلام وصفا للفترة التي تزامنت مع التنزيل وسبقت تدوين أول مصحف يحمل القرآن الكريم لأن القراءة الصحيحة للقرآن كانت تصدر من صاحبها – النبي صلى الله عليه وسلم- وهو التجسيد الأمثل لها . بوصفه خير مؤد ومبلغ انتقاه الله واصطفاه من بين عباده ليكون أفصح العرب قاطبة، وأقواهم حجة وأحسنهم بيانا وأبلغهم إذا خطب، إذ ورد في قوله صلى الله عليه وسلم "**(أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش)**"[7].

يحتاج الخطاب القرآني -في نظرنا -الى ملكة لغوية متعالية الفصاحة تحفظها مستويات لغوية متكاملة من حسن ايقاعاتها ومخارج أصواتها وانسجام أدائها قراءة وترتيلا، اذ هو جانب حساس في كمال الإعجاز لا يقدر على أدائه وتعليمه للناس إلاّ من اختاره الله بفضل قدرته على ذلك. ولا يمكن أن تجد ما يوفر مثل هذا الشرط إلا القراءات القرآنية المتواترة. التي أصبحت فيما بعد علما حيا قائما بذاته. له تفسيراته وايضاحاته فلمعرفة المعنى لابد أن" تتقبل الحديث اللغوي بشكل كامل، وبعد ذلك نختبره على مستويات مختلفة بالترتيب التنازلي مبتدئين بالسياق الاجتماعي "[8]. هذا يقودنا الى ربط الخطاب القرآني بالسياق الذي كانت الدراسات والمقاربات الحداثية تبعده عن الدراسة الحيثية للنص وهو الأمر الذي يستحيل أن يحدث مع الخطاب القرآني المفتوح الدلالات.

إن العلامات المصاحبة للملفوظ القرآني هي خاصة به وحده ولا يمكن أن تفارقه لأنها الوجه الآخر للإعجاز. وهذا ما يقودنا الى أن نقر على أن كل العلوم التي تكفلت بتناول الخطاب القرآني من علوم القراءات وعلوم التفسير التي تركز على سياقات التنزيل ولغة الخطاب بجميع مستوياتها. هي الشق المكمل للظاهرة القرآنية بوصفها رسالة إلهية الى البشرية.

نستطيع من خلال ما قدمناه أن ندلي على أن الخطاب القرآني مر بمراحل أخذت به من الخطاب الملفوظ الى النص المدون والمكتوب، فالمرحلة التي ظهر فيها هي المرحلة الشفوية التي تقابلها استجابة تواصلية ودلالية تليق بها باعتبار أن الرسالة كانت واضحة من المرسل بفضل المقومات الإيضاحية الموجودة في تلك الفترة.

وبوصفٍ آخر نقول أن للسياق دور كبير في تحديد دلالات هذه الرسالة. وإن كان قد تعذر فك شفرات بعض المسائل الموجهة في هذا الخطاب فلا شك أن حامل الرسالة يمتلك الوسائل المفككة لهذه الشفرات. والتي عرفت بالسنة النبوية الشريفة، التي رافقت هذا الخطاب العظيم طول مدة تنزيله.

نسلم بهذا نظريا وعندما نضع في كفة المعادلة أن السياق المصاحب للخطاب القرآني هو سياق موضوعي يسهم في تزكية المعنى وأداء الدلالة التي يكتنزها هذا الخطاب المشحون بطاقات متجددة ،لكن الأمر ليس ثابتا في جميع مراحل تطوره لأنه عندما ينتقل الى مرحلة ثانية وهي مرحلة المدونة أو الكتاب، التي تمثلت في المصحف المكتوب، يفقد بعض خصائصه التي تميز بها وهو في مرحلته الأولى، المرحلة التي تغني عن كل سؤال. لأن المتلقي كان شاهدا لأسباب نزول القرآن وعارفا كل تفاصيل هذا الخطاب لكن الأمر لا يتساوى عندما يتغير المتلقي ويبقى الخطاب ثابتا. ويزداد الوضع تأزما لما لا تتوقف عجلة الزمن وتتعاقب الأمم إذا كان النص قد أصبح في مدونته المغلقة في مصاحف محفوظ فهل بقيت القراءة على حالها وهل كانت هذه الكتابة أو الرسم مترجما للكلام الالهي المنزل على نبيه بالشاكلة نفسها التي صدر منها عن النبي صلى الله عليه وسلم .؟ هل حفظت كل أسباب النزول مثلما كان يعرفها الصحابة الذين عاشوا فترة التنزيل ؟ لماذا تجاوز عدد القراءات عشرة أنواع منها ؟ و أسئلة أخرى تقحم نفسها في إظهار الفروق بين الخطاب القرآني المنطوق و النص القرآني في مدونته .

يقول حامد أبو زيد :"افتقدت كل الأجيال الإسلامية منذ زمن التابعين معرفة خصائص هذا الخطاب: الظروف الدقيقة الحافة به، والشخص والأشخاص المعنيين والغايات المراد بلوغها أو المشار إليها ... إلى غير هذا وذاك من الأوضاع الخاصة بكل آية أو مجموع الآيات أو سورة من السور .... وما يعرف بأسباب النزول لكن هذا لأسباب لم يحتف بها الصحابة ،بما عايشوها ، بل إن الأجيال اللاحقة هي التي سعت الى معرفتها ، ولم تدون إلا جزئيا فقط ،إلا في فترة متأخرة بعد أكثر من جيل، ومن الطبيعي إذن أن يدخلها الكثير من الوضع والاضطراب" [9]

وما يدعم هذه الفكرة ما ذكره حامد أبو زيد حول تعدد أسباب نزول لآية الواحدة مثل قوله "(**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**)"(التوبة 113).فذكر أن الشيخان قالا أن هذه الآية نزلت في شأن استغفار النبي لعمه عندما حضر الموت ، أما ما رواه الترمذي عن علي أنه سمع رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان بحجة أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وهو مشرك فأخبر رسول الله(صلى الله عليه وسلم) . فجاءت الآية لهذا السبب، أما القول الثالث عن الحاكم عن ابن مسعود فقال أنها نزلت في شأن استغفار النبي لأمه [10].هي ثلاث مناسبات لآية واحدة وهذا لا يستقر في العقل إلا أن يكون من المتكرر في النزول، وهو أن تنزل الآية أكثر من مرة لمناسبات مختلفة وهو الفعل الذي رفضه بعض العلماء وعلله أنه تحصيل حاصل [11].

إن افتراض تعدد النصوص لواقعة واحدة، مثله مثل افتراض تكرار نزول الآية الواحدة أو الآيات عند أسباب ووقائع مختلفة يؤدي الى الفصل بين النص ودلالته، ويؤدي من ثم إلى القضاء على مفهوم النص ذاته، وهو ما لا يصلح أن يفصل بين النص وعلاقته بواقعه. هذا في باب التفسير والتحصيل الدلالي وفهم الخطاب القرآني ، أما في ما يخص التأصيل النصي للقرآني فقد ذهب بعضهم وعلى رأسهم محمد أركون الى التفريق بين النص الشفهي المعروف لديه بالظاهرة القرآنية و النص المكتوب (المدونة المعلقة) أي المصحف، معتبرا أن النص المكتوب الذي هو بين أيدينا " لم يتم إلا بعد حصول الكثير من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللغوية التي تحصل دائما في مثل هذه الحالات ، فليس كل الخطاب الشفهي يدون وإنما هناك أشياء تفقد أثناء الطريق" [12]، وهي من نقائص المنهجية الفيلولوجية التي يتبعها ، الفكر الاستشراقي الذي يفصل الأبعاد المتكاملة للنص بحجة التخصص كالفصل بين التحليل اللغوي مثلا فن التحليل السيسيولوجي أو الاجتماعي أو عن التحليل النفساني أو الأنثروبولوجي [13] فهي تكسر روابط المعنى لأن المعنى متداخل ومتكامل .

إن كان محمد أركون يرجع فكرة ديسوسير في اللسانيات الحديثة القائمة على أن الخطاب الشفوي قد يفقد بعض خصوصياته عندما ينتقل الى التدوين فهناك أشياء تضيع أو تتحور أثناء الانتقال الى المرحلة الكتابية [14] . وهي فكرة يدعمها صاحبها بهشاشة المصادر و نقصها في الاعتماد الإيتمولوجي المهتم بأصول الكلمات خاصة في الفترة التي تزامنت مع الوحي وما بعده بقليل ، إذ للظروف السياسية والسلطوية أثر كبير في توجيه الدلالة مع ما يوافق أغراضها و متطلباتها ، يعني أنه يستحيل في هذه الظروف التأصيل للنص وعليه يقترح فكر آخر لفهم التاريخ الإسلامي .

هذه فكرة قد يمكن اسقاطها على النصوص الشفوية التي كانت روايتها من طريق واحد وطرق متباينة، لكن الخطاب القرآني يختلف أمره و لا يمكن أن نطبق عليه القاعدة اللسانية التي نفترضها للنصوص الشعرية القديمة صحيحة بإقرار من علماء النقد والرواية قديما [15] لأن القرآن بوصفه كلام الله ثم حفظه في الصدور قبل حفظه في المدونات المعلقة كما يسميها أركون و الذي يزعم أن به تغير وتحويل وتبديل وأنه يتعارض مع نصوصه إذ أن المولى يخبرنا أن هذا القرآن "(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)" فصلت 42 . ويجبرنا في موضع آخر "(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)" الحجر 09. فالحفظ من التلاشي والحفظ من الزيادة والنقصان فيه بأن يسّر تواتره، وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغير حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم [16]. وهو بعكس الكتب السماوية، الإنجيل، التواتر.. التي أسند حفظها الى أهلها. فلم يكن الحفظ ناجحا ، فضاعت أمانتهم على غرار القرآن الذي حفظ من الخالق فكان الحفظ لنصه حفظا محققا، وهي الفكرة التي فرضت نفسها بما حققته هذه الرسالة السماوية .فليست بتزمت ولا تطرف مثلما يعتقد أنصار الحداثة [17] .أن فكرة ابعاد السياق و الانطلاق من النص هي السبيل العلمي و الموضوعي في فهم حقيقة النص القرآني الموجودة في المدونة المغلقة –المصحف- قد نتفق في أن طريقة الأداء في قراءة النص القرآني قد لاتصل الى نفس الطريقة

التي قرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم ولا طريقة الصحابة الذين سمعوا القرآن من لسان النبي وذلك لأن بعض الصيغ الصوتية لا يمكن للكتابة أو الرسم أن يحفظها بطريقتها الأولى وهذا ما نلاحظه في التفاوت الأدائي بين كبار القراء في جميع المقارئ المشهورة .

2- **الخطاب القرآني من أحادي الدلالة الى التعدد الدلالي :**

يرى براون ويدل أن محلل الخطاب ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب والسياق هو (المتكلم، المستمع، والمكان) فكثيرا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين الى تأويلين مختلفين، فالسياق هو حصر مجال التأويلات الممكنة و يدعم التأويل المقصود [18] .

فلنا في الخطاب القرآني المباشر الذي كان المتلقي فيه مقصودا يدرك الملابسات المرافقة لهذا الخطاب لا يبحث عن سبب نزول الآيات و السور لأنه يدرك ذلك فلا حاجة له في السؤال ، فكان يتجه مباشرة الى تفسير الخطاب انطلاقا من اللغة المشكلة له وإذا تعذر عليه، وجد من يفسر له ، فيقطع باب التأويل والانفتاح الدلالي، ويجعله نصا مفهوما أحادي المعنى يستطيع أن يأخذ مجراه النفعي والتداولي، فيكون النص نصا منتهي الدلالة محققا لغرضه التوجيهي و التعليمي، وهو ما تدعوا إليه الدراسات الحديثة عندما لا تضع السياق خارج المقاربة مركزة على المجالين الدلالي و البراغماتي اللذان ينظران في المعنى من جهتين متكاملتين . فالغالب على علم الدلالة أن يكوّن دراسة لسانية مركزة في دراسة المعنى على النظم اللغوي باحثة عنه في المستويات الصوتية والمعجمية والتركيبية والبلاغية إلاّ أن البراغماتية في استقصاء المعنى تتجاوز التركيب اللغوي الى مقامه وسياقه "[19] . فيكون إذن الاهتمام باللغة ومستوياتها في تفسير النص وقراءته وتكون القراءة موفقة الى حد كبير إذا ثبت السياق الذي يقطع أمام الانفتاح الدلالي فرصة تعدد القراءة أو التشعب النصي . لهذا كانت الدراسات القديمة تركز في البحث عن المعنى على اللفظ المفرد والمركب ولا تهمل الصياغة أو الجملة، حيث وقع في اهتمام علم النحو " اعتبار سياق الكلام داخل الجملة ولم يقع اعتبار مقام الكلام خارج الجملة وفيما وراء اللغة لأن طبيعة المبحث النحوي وموضوعه إنما هو النظر في نظام الكلام ودراسة العلاقات بين مكوناته ، وكذلك كان الشأن في الدراسة اللسانية الحديثة وما نبأت إليه البحوث البراغماتية الى دور المقام في بناء المعنى وضبطه [20].اذا كان ظاهر النص يوضح ما يسعى النص الى ابرازه ولا يخفى على القارئ أو المتلقي ظلال النص التي ساهمت في ولادته أو الظروف التي دفعت إلى قيامه لتحقق ما يسعى بهدف النص الذي لا شك أنه الجانب النفعي فيه ،فتكون الرسالة محققة غاية المرسل.

إلا أن هذا النص لما خضع لقيمة التاريخ أخذ طريقه الى دائرة النصوص الموضوعة في اهتمام البشر فاعتبره أركون " مجموعة من الدلالات والمعاني الاحتمالية المقترحة على كل البشر فهي مؤهلة لأن تثير أو تنتج خطوطا واتجاهات عقائدية متنوعة بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها .. القرآن نص مفتوح على جميع المعاني ولا يمكن لأي تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي "[21] هذا

أمر اتفق فيه علماء المسلمين عندما توصلوا الى أن القرآن معجزة خالدة لا يتأثر بمرور الزمن ولا تحده فضائية المكان ، بعكس معجزات الأنبياء السابقين التي كانت آنية انتهت مع نهاية أصحابها .

فالقرآن صالح لكل زمان ومكان بما يحتويه من طاقة متجددة قادرة على أن تسع كل القضايا الكونية دون استثناء "...(**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**)"(الأنعام 38)

إن قضية المحكم والمتشابه التي صرح بها النص القرآني وأقر بها: أن من القرآن ما هو متشابه يقتضي التأويل لهي نافذة كبرى يُرى من خلالها أن هذا النص يقتضي دلالات خفية تقبع خلف سطوره فتحتاج الى من يميط عنها اللثام يقول تعالى "(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)" آل عمران 07 ؛ إذن فالنص ذاته قابل لذلك التشخيص؛ لأنه يجسد شرط تحققه أي إمكانية استنطاق بنيته الكلية الإجمالية بصيغ محتملة قد لا تحصى دلاليا"[22] فهو يتميز إذن بخصائص مطاوعة مع سياقات متعددة حتى يمكننا الوصول الى دلالات لا محدودة نظرا لطواعية اللغة التي تشكل هذه البنية النصية . فالمعاني التي تتخللها جمل القرآن تعتبر مرادة بها [23] ،اذ تركز على مجازية اللفظ وحقيقته لأن المجاز يعطي النص فسحة دلالية تسمح باستمرارية تداول النص وتمنح له حيوية يتجدد مع الأزمنة في جميع الأمكنة ، فمثلا في قوله تعالى "(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**)"**(الحج 18)**. يرى الطاهر بن عاشور أن " السجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي وهو التعظيم "[24] أي أن اللفظ في القرآن ينفتح دلاليا الى معاني متعددة محتملة تتجدد مع تجدد السياق. فأينما حل المشترك اللفظي حسن استعماله في معاني أخرى. فكذلك قوله تعالى "(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**)" **(المائدة 01)** .ففي قوله (وأنتم حرم) ، يجوز أن يراد به محرمون فيكون تحريم الصيد على المحرم : سواء كان في الحرم أم في غيره ، ويكون تحريم صيد الحرم لغير المحرم ثابتا بالسنة ، يجوز أن يكون المراد به محرمون وحالّون في الحرم ، ويكون من استعمال اللفظ في معنيين يجمعهما قدر مشترك بينهما وهو الحرمة [25] .

إن هذا التوجه في تفسير وفهم معاني القرآن معروف لدى الأوائل من المفسرين و المؤولين لأي القرآن مثل الطبري والزمخشري ومن نهج نهجهم من المحدثين كابن عاشور والسيد قطب في الضلال لكن النقد المعاصر قد أخذ من هذه الخاصية - تعدد الدلالات للألفاظ- نافذة لانفتاح النص وهي نظرية لسانية حديثة منبثقة من أفكار دي سوسير التي تدلي على أن " اللغة نظام من العلاقات الاصطلاحية قائم على التماثل والتخالف وعليه تكون العملية التأولية في ضوء مرتكزات التحليل البنيوي اللساني هي عملة مقيدة بالأثر النصي ، فالمدلول خاضع للعمليات اللسانية داخل النص[26].

3-محددات الإنفتاح النصي:

وضع جاكبسون مخططه التواصلي القائم على ستة عناصر أساسية في العملية التواصلية وهي المرسل ، والمتلقي ، والرسالة ، والسياق وقناة الاتصال، والشفرة حيث أن عملية التبليغ تقوم على الكشف والايصال والتأثير كما تعبر عن محصلة كبيرة من استراتيجيات ومبادئ في الايصال وأنماط رسمية لاستخدامها يطبقها كل من المتحدثين والمستمعين حتى يتم التفاعل بينهما بنجاح ، وتتحقق أهداف الاتصال في مقامات متعددة وظروف مختلفة بشكل فاعل بكفاية [27] وهذه القاعدة أساس قيام النظرية البرقماتية التي تقوم على النظرية التأولية . التي تشرك القارئ في تعميم طريق وظائفها الدلالية المعتمدة على تنوع المعارف المميزة ، وبذلك تحررت من الاعتماد البرهاني الى فسح المجال للمجال العام من أبعاد المعنى وفق بناء تسلسل الأفكار في اندماجها النفسي مع المعطى الخارجي بمقدار ما تتقبله الوظيفة العقلية لدلالة التأويل بواسطة الخيال الذي يمنحنا خصوصية حرية التحرك بين فعل مقصدية المعنى وافتراضية التصور لهذا المعنى الرحب [28]. وهي الفكرة التي بينت عليها بلاغة التأويل التي تخرج لغموضها الى التدبر ،والتصفح ، وهذان يفيدان من المسموع وجوها مختلفة كثير نافعة وبهذه البلاغة يشع في أسرار المعاني الدين والدنيا والتي تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عزّ وجلّ وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام والحضر والإباحة ... ولقد فقد هذه البلاغة لفقد الروح كله وبطل الاستنباط أوله وآخره ، وجولان النفس ، واعتصار الفكر إنما يكونان بالنمط في أعماق هذا الفن . وهاهنا تنتقل الفوائد وتكثر العجائب ، وتتلاقح الخواطر، وتتلاحق الهمم وهي إشارة الى اقحام نفسية المتلقى في فهم النص و إلى المنهج الَّوفي وتفعيله في اكتشاف أعماق النص و الولوج الى العوالم الباطنية للنص حتى يتسنى فهم العلاقة الموجودة بين ظاهر النص وباطنه وهي علاقة الانسجام الدلالي التي تكون النص .

فقد يكون بهذه الفكرة تأثير المتلقى في المرسل –صاحب النص في مسار تعديل وتوجيه الخطاب بناء وظروف وحال المتلقي و قدراته المعرفية وكذلك للمرسل دور هو الاخر على المتلقي في عملية تصوره وتأويله للخطاب لأن عملية بناء الفرضيات وإنجاز التأويلات التي يقوم بها المخاطب لا تتم في ذهنه مع غياب أو تغيب لصورة المتكلم وكفايته العقلية و الاستنباطية بل تظل هذه الصورة مائلة فاعلة في عين المخاطب تقوده فيما بينه من فرضيات حول المعنى وما يستنبطه من تأويلات [29].

ويمكن أن نح الى أن عملية التفسير والقراءة للنص أو الخطاب تكون متواشجة ومتكاملة بين الطرفين الباث والمتلقي يحضها محتوى الخطاب بوصفه الرسالة المعول عليها في هذه العملية التواصلية التي بدورها تتألف مع سياقها ولغتها لأن علاماتها تحيل على الثقافة التي تصورها. أما في التجربة الصوفية تجد أن حدود التواصل تبنى وفق منظور ثلاثي الأبعاد بحيث أن الأبعاد الثلاثة تمثل في مكنونها رموزا للخطاب الإلهي المتمثل في الكون والإنسان، وكل هذه الأبعاد الوجودية صورة من الآخر وفقا لخصوصية بينية ، حيث يعتبر الإنسان الكلمة الإلهية الجامعة لمعاني العبدين الآخرين أي الكون و القرآن . بوصفها خط بين الجهتين المخاطب فيها هو الله تعالى والمخاطب فيه هو الانسان الذي له القدرة على فك رموز العبدين الآخرين [30].

وإذا كان الكون في جوهرة أفق دلالي مفتوح يستطيع الإنسان أن يدرك بفهمه كثيرا من آيات هذا الأفق ومقاصده، فإن القرآن الكريم هو البيان اللغوي المقالي المعجزة و به دلالة على ضرورة سعي الإنسان الفهم فجوى الدلالات الموجودة في الكون أو القرآن [31] .

و تبقى الدلالة الصوفية للقرآن محصورة في توحد النص وقائله فالصوفي يتوحد لديه الكلام و المتكلم فلهذا يرى أن القراءة تكون خاصة مميزة يمكن من خلالها أن يجعل القرآن يتغلغل في حنايا شعوره ويقرب به الى الله فيحصل الفهم الصحيح لديه لأنه قريب من الخالق [32] فلها فهم خاص لا تجده إلا في الفكر الصوفي .

4-تلقى النص القرآني بين القراءة التراثية والحداثية:

نأخذ في هذا العنوان نصا حساسا من نصوص القرآن لنبين كيف فهمة المفسرون القدامى و الفِرق الإسلامية و كيف كانت رؤية المحدثين الممتلكين لآليات القراءة الحداثية في فهم هذه النصوص الحرجة نظرا لما لقيته من تحفظ عند البعض و جرأة التطبيق والتنفيذ عند البعض الاخر وقد وقع اختيارنا على مجموعة من الآيات الأولى لسورة التوبة والتي تنص على قتال المشركين ، حين قال تعالى "(**فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)"التوبة 5 .يقول الطبري:) فاقتلوا المشركين(، يقول: فاقتلوهم)= حيث وجدتموهم(، يقول: حيث لقيتموهم من الأرض، في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم)= و خذوهم (يقول: وأسروهم)= واحصروهم(، يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة)= واقعدوا لهم كل مرصد(، يقول: واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم " = كل مرصد "، يعني: كل طريق ومرقَب.[33] ويقول القرطبي :قوله تعالى فاقتلوا المشركين عام في كل مشرك ، لكن السنة خصت منه ما تقدم بيانه في سورة)البقرة(من امرأة وراهب وصبي وغيرهم . وقال الله تعالى في أهل الكتاب : حتى يعطوا الجزية . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب ، ويقتضي ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتي بيانه . واعلم أن مطلق قوله : اقتلوا المشركين يقتضي جواز قتلهم بأي وجه كان ، إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المثلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق رضي الله عنه حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار ، وبالحجارة وبالرمي من رءوس الجبال ، والتنكيس في الآبار ، تعلق بعموم الآية . وكذلك إحراق علي رضي الله عنه قوما من أهل الردة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب، واعتمادا على عموم اللفظ[34] ، لقوله تعالى "(**أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ 13 قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**)"التوبة 13-14

نرى أن كل التفاسير القديمة التي تتعامل مع ظاهر النص وإن اعتمدت على أسباب النزول فهي تصرح على قتل المشركين في جميع الأوقات مستثنى منها الأشهر المذكورة في الآية ، فقتل المشركين الذين لم يتوبوا

واجب على كل مسلم ومجاهد باعتبار أن النص القرآني صالح لكل الأزمنة و الأمكنة ولأن دلالة الشرك لا تتغير بتغير الزمان فيعني هذا الحكم قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أو يتوقف بتوبة المشرك و دخوله في الإسلام[35].

نرى أن ظاهر الآية يدعوا الى محاربة المسلمين للمشركين والدعوة الى القضاء عليهم وهو فعل عنيف لا يوفر التعايش بين الفئتين على هذه الأرض وهذا ما يدعوا الى إعادة قراءة النص القرآني قراءة صحيحة تتوافق مع الواقع ومع ضرورة تكييف الأحوال المعاشة من الدين الإسلامي بوصفه دين صحيح يتصدر كل الأديان.

يرى أركون أنه من المغالاة أن يتصور المؤمنون الحرفيون حقيقة الفهم الحرفي ويعتنقون لواءها دون تفكير و ينزعج منها المسلمون الليبراليون الذين يراعون حقوق الإنسان و الحرية الدينية و التسامح و حرية التفكير التي توافق بين النص ومتطلبات العصر ، فهذه الفكرة قد تتعارض مع محتوى النص الذي بين أيدينا ، لأن الآية تدعوا الى دين يتبنى العنف ويحرض على القتال ضد كل من هو مسلم ، أما التفسير الحداثي فإن النص لا يخرج عن ظروف التاريخ والمجتمع .

فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقرأ النص خارج سياقه و بمعزل عن النصوص الأخرى في آيات أخرى موضحة لهذا النص، والتي تتحدث هي الأخرى عن قضية القتال ، فلهذا كانت القراءة السليمة هي تفعيل النصوص الأخرى والتعامل مع النص بنظرة شمولية وتشغيل أدوات الاستنباط الأصولية يخرج الفكر من نزعة التعطيل التي تبناها الحداثيون القاتلون بتاريخية النص وكذلك بإخراجه من فكرة اللبراليين القائلين بمسالمته ولا قراءته حرفيا مثل ما فعل السلفيون اعتمادا على أن النص القرآني صالح في كل مكان وزمان 36. فالقراءة تكون شمولية متكاملة لأن من شروط الجهاد هو رفع ضلالة الكفر و التقدم بنشر الدعوة الإسلامية وإحراز النصر المؤكد فإذا انعدمت الآليات والإمكانيات المادية والنفسية، فلا يمكن أن يغامر المسلمون الى الفوضى، لأن المخاطبين في نص آيات سورة التوبة هم المسلمين الذين تتوفر فيهم شروط قتال المشركين.

5-خاتمة :

من خلال ما تقدم يمكن أن نلخص أهم النتائج:

- إن لغة القرآن الكريم هي لغة معتادة لدى العرب القدامى، فلم تخرج عن نطاق المألوف وبذلك احتوت المعاني المراد تبليغها في الخطاب القرآني نظرا لاحتوائها علي قدرة مجازية هائلة لا يقدر على توظيفها بهذه الطريقة اللسان البشري.
- لا يمكن التفريق بين القرآن المنزل في عهد النبي و القرآن المجموع في المدونة –المصحف-كما يدعي محمد أركون أنه تعرض لعملية التعديل بالحذف والزيادة و الترتيب بفعل قوة سياسية مقصودة و هو الأمر الذي

يعاكس قوله تعالى "(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)" فصلت 42 . و تفسيرها أنه لا يستطيع ذو باطل بكيده تغيره وتبديل شيء من معانيه . وكذلك قوله تعالى "(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)" الحجر09 . وهو إقرار بحفظه من المولى جل جلاله.

- لا يمكن اعتبار النصوص المستدل بها في التفاسير على أسباب النزول في القرآن كلها نصوص محرفة ،بل هناك معايير علمية منهجية في تصنيف الأحاديث النبوية . من الصحيح والحسن و الضعيف والموضوع ... و المكذوب فالسياق المرافق للنص القرآني وإن و جد فيه بعض الاختلاف الا أنه يعتبر أحسن وسيلة يمكن الاعتماد عليها في فهم و تفسير القرآن.
- يمكن اعتماد المناهج والآليات اللسانية الحديثة في التعامل مع استخراج الأبعاد الدلالية والجمالية للنص القرآني لكن ليس بعيدا عن موافقة السياق بأنواعه لهذه المقاربات.
- يعتبر القرآن النص الصالح لكل زمان و مكان و تأويله لا يتعارض مع تعاليم الإسلام المعروفة في المرجعية الإسلامية الصحيحة دون غلو وتطرف ولا تقصير مخل ، إذ هي الأمة الوسط.

هوامش البحث:

[1] استراتيجية الخطاب ،مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن طافر النهري دارا لكتاب الحديد بنغازي ط1 2004ص 04

[2] المصدر نفسه ص04.

[3] عبد الغني بارة ،الهيرمنوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقلي تأويلي ، ،الدار العربية ناشرون منشورات الاختلاف ط1 2008،ص421.

[4] نصر حامد أبوزيد ، النص السلطة الحقيقية ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3 ،ص216

[5] نقلا عن تفسير بن كثير ، دار الفكر ،بيروت 1986 ،ج4 ،ص435، وفي صحيح البخاري، عن أنس :أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كانت مدا ، ثم قرأ) بسم الله الرحمن الرحيم (يمد " بسم الله " ، ويمد " الرحمن "، ويمد " الرحيم . "

[6] جمال الدين الزيلعي ،الإسعاف بأحاديث الكشاف ،ت ح: محمد بن أحمد بن علي باجابر ، رسالة مقدمة الى كلية الشريعة، أم القرى 1417 هـ مج 1 ص1141

[7] غريب الحديث أخرجه الطبراني عن ابي سعيد الخدري

[8] عبد الكريم مجاهد ، الدلالة اللغوية عند العرب ، دار الضياء ، عمان ص157

[9] ينظر: حامد أبوزيد ،مفهوم النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب ط1 2014،ص 108-115

[10] جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ت: مركز الدراسات القرآنية ، مجمع الملك فهد للطباعة ،العربية السعودية ط1 ،دت، ج1 ص 237

[11] حامد أبوزيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط1 2014، ص 107

[12] محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، تع: هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، د ط،1998ص188

[13] المرجع نفسه، ص 187

[14] ينظر: المرجع نفسه ص 188

[15] قضية الانتحال أثارها ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء ، بين أن كثير من الشعر العربي منحول لا خير فيه.

[16] الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج14 ص21

[17] محمد أركون، نقد العقل الديني، ص183

[18] *BROWN. G .AND GEORGE Yule. 1983, Discourse Analysis .c. u. p. London .p.37*

[19] الهادي الجطلاوي ، مباحث في أسلوب القرآن ،كنوز المعرفة ، الأردن ،ط1 ،2013،ص 190

[20] المرجع نفسه. ص 191

[21] محمد أركون ، الفكر الإسلامي قراءة علمية . شرح وتعليق: هاشم صالح ،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،ط2، 1996،ص 274

[22] الطيب تيزيني ،النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة ،دار الينابيع ،دمشق ،ط 1 ،1997،ج5،ص242

[23] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ،ج9،ص91

[24] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ،ج1،ص9

[25] المرجع نفسه ،ج5ص13

[26] ينظر :فردينار دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة ، نقلا عن أحمد مومن ،اللسانيات النشأة والتطور ديوان المطبوعات الجامعية ص124

[27] *Seven sins of pragmatics by dorothea frank in possibities and limitation of pragmatics by herman parret .p.233*

[28] أبو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ت: أحمد أمين ، أحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ،دط،ج2 ،ص 142

[29] حكيم سلمان السلطاني ،في القراءة الحداثية للنص القرآني ،ص137-138

[30] عادل محمود بدر. التأويل الرمزي للشطحات الصوفية ،دار مصر المحروسة ،ط1 ،2010 ،ص36

[31] المرجع نفسه، ص 37

[32] المرجع نفسه ،ص 46

[33] الطبري، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القران مؤسسة الرسالة ط 1 ،1994ج4،ص 82

[34] القرطبي الجامع لأحكام القرآن تفسير ت: عبد المحسن التركي ،مؤسسة الرسالة ،ط1 2006 ، ج10 ص 109-110 وينظر أيضا صحيح البخاري الحديث 6922عن عكرمة وينظر كذلك خبر أبي بكر في تاريخ الطبري ج3ص262-265

[35] الطبري ،جامع البيان ج4،ص82

[36] ينظر :حكيم سلمان سلطان ، القراءة الحداثية للنص القرآني .ص178